الفصل الرابع

صـــورة النـــار في البـرق

كان للطبيعة العربية وقع متميز ، وأثر فعَّال على حياة العربي – بسمائها وجبالها ووديانها ونخيلها ، وحيوانها – حتى ملأت عليه حياته وأفعمت خياله وألهبت عواطفه ، ومن الملاحظ أن معظم آلهة العرب البدو كانت طبيعية ، فما الشمس والقمر والزهرة ، والبرق ، والمطر... والكثير من آلهة النبات والحيوان، المثلة للطواطم، إلا أجزاء من الطبيعة المحيطة بالعربي ، تفانى فى حبها والارتباط بها ، حتى انعكست فى الشعر العربي القديم بشكل حدا بكثير من نقاده ومؤرخيه إلى القول بأن شعر الطبيعة من أقدم فنون الشعر العربي، وقد نقل القائل أيضا "عن الأصمعى"

إن سبيل الشعر هو وصف الحياة البدائية بطبيعتها وحيوانها ، فإن خرج عن هذا الطريق لان وضعف([٦٤٧]).

وقد ربط سبتينوموسكاتى بين الطبيعة العربية بصحرائها القاحلة ، وقوة وضعف الشعر الغنائي العربي([٦٤٨]) وعدَّ البعض الطبيعة العربية وضعا" بيئيا" فُرِض على الشاعر العربي ووجَّه حياته ووجوده وجهات لا يمكن أن يسير إلا فيها([٦٤٩]) ، وهذه الحتمية كان لها أثرها وظهورها على الشعر، مما جعل ابن قتيبة يربط بين أغراض القصيدة المختلفة ، وبين مؤثرات البيئة الخارجية التي تترك آثارا نفسية على الشاعر([٦٥٠]).

---

(١) شعر الطبيعة فى الأدب العربي د.سيد نوفل ص ٣٣، ٣٥ ، ٣٦ " وفيه شئ من الافراط والمبالغة "

(٢) الحضارات السامية القديمة سبتينوموسكاتى ص ٢١١

(٣) الزمان والمكان وأثرهما فى حياة الشاعر الجاهلي وشعره حـ١ الجزء ط بالتمهيد

(٤) الشعر والشعراء لابن قتيبة، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف ١٩٦٤ حـ١ ص ٧٨

وهم رغم ذلك لم يكونوا يسأمون هذه الطبيعة رغم قسوتها وخشونتها ، فقد كانوا يشتاقون إليها وهم فى الحضر والمدن ، ويتوقون إلى حياة الجوع والحرمان فى الصحراء ٠

وقد عرض ابن قتيبة لقول شاعر بالبصرة :

أَقُولُ بالمِصرِ سَـــاءَنى شِبَعِى ألا سَبْيل الىٰ أرضٍ بها جُوْعُ ؟

ألا سَبِيل إلى أرضٍ بهاَ غَـرثٌ جُوْعٌ يصُدِّع مِنه الرأس برقوعُ

وقال آخر :

وَعَادةُ الجُوعِ فاعلمْ عِصمَةٌ وغِنى وَقَدْ يَزِيُدكَ جُوعاً عَادةُ الشِّبَـعِ (٦٥١)

وهذا الارتباط بالبيئة العربية، كان سببا فى ظهور صور الطبيعة فى شعر الجاهليين وهذا يوكل إلى تفانيهم فى حبهم وتقديسهم لها ، ولم ينته الأمر عند مجرد الحب الناتج عن النفع بل الأمر قد تطور إلى درجة العبادة(٦٥٢) – كما ذكر ذلك من قبل – فالإنسان عبد مظاهر الطبيعة بدافع الرغبة والرهبة، فالطبيعة بشمسها ،وقمرها ونجومها وبرقها ، قد أثرت فى مشاعر الانسان البدائى بشكل خرافى، جعل منها آلهة لديه، وقد نقل الدكتور ناصف عن شيلنج أن المادة "الطبيعية" والعقل كل منهما جانب من وحدة أسمى إذ الطبيعة روح مرئية ، والروح طبيعة خفية ،(٦٥٣) وهذا يفيد التداخل بين الإنسان والطبيعة والتلاحم معها.

---

(٥) عيون الأخبار لابن قتيبة، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٧٠صورة من طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٠ ص ٠ ٨٨

(١) راجع مغامرة العقل الأولى مواطن متفرقة

(٢) الصورة الأدبية د٠مصطفى ناصف ص ٢٧

وإذا كان البرق بوصفه صورة من صور الطبيعة، تتجسد فيه صورة النار الخيِّرة قد ظهر فى شعر ما قبل الإسلام بمساحة عريضة وتكرار كبير ٠

فقد يلزم البحث تحليل هذه الصورة والتنقيب عن اصولها الدينية والأسطورية لدى منشئ هذا الشعر " العرب القدماء " وأيضا رصد ما حول هذا الشعر من مؤثرات كانت سببا فى نشأته إذ إن قراءة القصيدة معزولة عما كان سببا فى نشأتها قد يغلفها بغموض شديد "([٦٥٤])

والبرق المترقَّب الذى يأرق الشاعر فى ترقبه ويدعو له صاحبه بالسهر له والمعاونة على رؤيته وتمنيه ، وكأنه ضيف كريم تنتظره الدنيا بأسرها ، لم يكن لمجرد التسلية بلون ضوئه أو الاستئناس به فى الظلام ، أو التدليل على الوحدة والحيرة كما ذهب بعض النقاد إلى أن الفعلين " راقب " " أرق " يدلان على الحذر والقلق وغيرهما من الدلالات النفسية([٦٥٥]) وقد ذهب البعض إلى أن فكرة البرق وقنديل الراهب وغيرها من بواعث النور فى الشعر الجاهلى ، ليست لمجرد الشبه الخارجى بل تستثير فى النفس جانب التأمل وتدفع إلى البحث عن النور.([٦٥٦])

والنور كمضاد للظلمة يزيل الحيرة، لأن الأشياء تُعرف بأضدادها وتلك هى قسمات النفس العربية([٦٥٧])٠

---

(٣) الشعر الجاهلي قضاياه الفنية والموضوعية د٠إبراهيم عبدالرحمن ص ٢٤٦

(٤) الطبيعة فى الشعر الجاهلي د٠نورى حمودى القيسي ص ٢٥٣

(٥) الوسيطة العربية د٠عبدالحميد إبراهيم ص ٤٨٢ ٠

(١) المرجع السابق ص ٥٨

كل هذه محاولات مُخلصة فى البحث عن تفسير ظاهرة ترقب البرق وانتظاره المتكررة فى الشعر القديم ، ويقترب الدكتور مصطفى ناصف من التفسير الدينى للعلاقة بين الراهب ومصباحه وبين المطر وقد اتخذ المعنى الروحى لولادة المطر قائلا : ومهما يكن فإننا لا نستطيع أن نتجاهل صلة ما بين فكرة الراهب ، وفكرة المطر ، وبهذا يصبح ضوء الراهب قويا بحيث يغشى كثيراً من الكائنات فتنكب على اذقانها، وبعبارة أخرى لا نستطيع أن تثبت لضوء الراهب([٦٥٨]).

وإن كان الدكتور ناصف هنا قد تناول الصور التى التقى فيها البرق بمصباح الراهب فقط، إلا أنه اقترب من المعنى الروحي لهذا الطقس الشعائري الذى اتخذ فى شكل تسابيح لاستجلاب المطر ، وقد صرح بذلك الدكتور أنور أبو سويلم قائلا : " ولست بحاجة الى التدليل على ان الشاعر الجاهلى كان واحداً من المسئولين عن صنع المطر وإنزاله ، أو هو الحالب الذى يأرق حتى تدر ناقة السماء، وقد علل الدكتور تكرار هذه الصورة عند أكثر الشعراء الجاهليين بأنّ الشاعر القديم كان يقوم بدور الفنان المبدع والساحر المتنبئ ، والفليسوف الحكيم "([٦٥٩]) وعدَّت د. ثناء أنس الوجود ترقب البرق مرحلة ثانية من مراحل الاستسقاء لدى الشعراء، حينما لا يكتفى الشاعر ببكائه عند الأطلال أو بندائه "قفانيك" فإذا لم تكفه دموعه لدى الديار ، أهاب بالطبيعة حوله أن تشاركه ذلك فيتحول إلى صانع المطر يقوم باستدعاء البرق فيعقبه المطر، لذا فهو يأرق وحده ويدعو أصحابه لكى يعينوه على الوقوف له واستدعائه ورؤيته([٦٦٠]).

---

(٢) قراءة ثانية لشعرنا القديم د.مصطفى ناصف ص ١٢٦ ، ١٢٧

(٣) المطر فى الشعر الجاهلي د.أنور أبو سويلم دار عمان ، ودار الجيل بيروت ١٩٨٧ص٩٢

(٤) رمز الماء فى الأدب الجاهلي د. ثناء أنس الوجود ص ١٣٨ ، ١٤٠

نستشف مما سبق من أبحاث ونتائج، أن استطلاع البرق لم يكن مجرد تقليد فنى تكرر بكثرة فى الشعر الجاهلى ، لغرض شكلى أو معنى سطحى ، وإنما كان له مغزى دينى اسطورى ، وإن كان

غير واضح إلا انه يظهر بشكل غير مباشر فى شكل رواسب لجذور قديمة درسها الزمن.

فالبرق كان نذيراً بالمطر ومقدمة طبيعية له ، بل هو بدايته ، والشاعر الجاهلى حينما كان يستدعيه ، ويستطلع لرؤيته لم يكن يفعل ذلك عبثا، وإنما كانت هذه الظاهرة بمثابة ممارسات سحرية وتسابيح يستجلب بها البرق أو المطر أو بشراه ، لتحلب له ناقة السماء ، فصارت هذه الظاهرة " الاستعانة على رؤية البرق " ، " واستدعاء الصاحب لمراقبته " ، "وشكوى الأرق لترقُّبه" بمثابة الأزمة السحرية المصنوعة التى لابد من ذكرها عند الحديث عن المطر ، والتفاؤل بقدومه ليكسو الأرض خضرة ويعمها بالخير.

والشاعر عند حديثه عن البرق الذى ينتظره بشغف ، ويتشوفه بقلق يأخذ فى وصفه بكلمات شعرية بشكل يعكس لنا مدى تصوره ورؤيته لهذا الطالع المنتظر ، وهو يرسم ملامحه بشكل بطىء وكأنه يتمثل أوضاعه ، وآثاره بشكل استبشارى فامرؤ القيس يقول :

أعِنِّى على برقٍ أراه وميض يضىء حبيا فى شماريخَ بيضِ

ويهدأ تاراتٍ سناهُ وتـــارة ينوء كنعْتابِ الكسير المهيضِ

وتخرج منه لامعاتٌ كأنَّهـــا أكفٌ تلَقَّى الفوزَ عند المَفِيضِ([٦٦١])

---

(١) ديوان امرؤ القيس الكندي ص ٧٣ .

وامرؤ القيس هنا يستبطئ الحديث عن هذا البرق ويدقق ، كأنه يستمتع بوصفه كمن يحب الحديث عن شئ يحلم به في أحلام يقظته أو كالذى يتمتم بتسابيح تحمل أوصاف البرق حتى يستدر حليب السماء وهو المطر الناتج عن البرق ، فهو يضيء السحاب القريب من الأرض ذا اللون الأبيض، وهذا يجعل ضوءه ينعكس بصورة أنصع وأشد ، وهو يهدأ فترَت ويأتى فترة مثل بعير يمشى على ثلاث أرجل ، وقد كسر هذا البعير بعد جبره ، فمشية بطيء له نبرة تحدث إيقاعا فى خيال من يراه. يوحى بالاستمتاع والمتابعة لهذه الخطوات البطيئة المنتظمة ، والبريق لامعات كأنها أكف فازت عند من يضرب بالقداح.

وهذه نتيجة طبيعية تعكس سبب ذكر الشاعر للبرق بهذه الطريقة ، وهو سبب نفسى نستشعر فيه الاستبشار وانتظار هذه الومضات المبشرة ، والتى هى فى ذاتها سعيدة كمن لقى حظه عند من يضرب بالقداح ويعبر سحيم عن الدلالات نفسها قائلاً :

فدعْ ذا ولكنْ هلْ ترى ضوءَ بارقٍ يضيءُ حبياً منجداً متعاليـــا

يُضيءُ سناهُ الهَضْبَ هَضْبَ مُتالعٍ وحُبَّ بذلك الهَضْبَ لو كان دانيا

نَعِمْتُ به عيناً وأيقنتُ أنَّـــه يَحطُّ الوعولَ والصُخُورَ الرَوَاسِيا(٦٦٢)

وتأمل التفصيل والبطء فى وصف البرق كما فعل امرؤ القيس فى النموذج السابق ، ويلاحظ فيه نفس الدوافع وهى التفاؤل والتمتع ، واستجلاب البرق واستدعاؤه ، وهنا يلاحظ التركيز الضوئى فى الحديث .

(١) ديوان سحيم عبد بني الحسحاس ص ٣١

فذكر كلمات تكثف النور فى الابيات وخاصة الأول والثانى، اللذان كانا مقدمة نتيجتها فى البيت الثالث وهو السيل الذى يحط كباش الجبل والصخور الثوابت ، وهذا التكثيف تركز فى الكلمات "ضوء" ، " بارق" ، " يضىء " ، " سناه " وهذه وإن كانت لها لوازم طبيعية للبرق إلا أنها توحى بجو من البشر والتفاؤل ، علاوة على التبرك بأنها الفاظ من النور، وقد ذُكر سلفاً مكانة النور فى الخيال العربى والسامى ٠

ومما يدل على التفاؤل قوله : " نعمت به عينا " وتأكده من الخير بنزوله فى قوله : وأيقنت انه يحط ٠٠٠" ويكرر التكثيف الضوئى عند خفاف بن ندبة فى قوله :

فدعْ ذا ولكِنْ هلْ تَرى ضوءَ بارقٍ يضىءُ حَبِيًّاً فى ذُرَى مُتَأَلِّق

ويقول فى موضع آخر:

أصاحِ تَرى البرقَ لمْ يَعْتَمِـــضْ إذا زعزعتْه الجنوبُ استطَارا(٦٦٣)

ويقول أيضا :

يا هلْ تَرى البرقَ بتْ أرقبُـــهُ فى مكفهرٍ نشاصُهُ قَـــرِدُ(٦٦٤)

ولا ندرى سر التقارب الصوتى بين الكلمات " البرق " ، " والمراقبة " ، " ارقبه " فالمادة (ب ر ق) تحوى نفس حروف المادة (ر ق ب) فهل يعنى ذلك توحداً من نوع ما ؟ وهل لهذا التوحد علاقة بالأرق " الذى يلازم البرق وارتقابه؟ ويحوى ثلث المادة اللغوية (أ ٠ ر ٠ ق) ، (ب ٠ ر ٠ ق) ؟!

(٢، ٣، ٤) ديوان خفاف بن ندبة السلمي تحقيق نورى حمودى القيسى، مطبعة المعارف، بغداد ١٩٦٨ص ،٨١: ٨٥.

والملاحظ فى أبيات حَفَّاف أيضا، استخدام ألفاظ تعطى الدلالات السابقة : " ضوء " ، " بارق "، " يضئ " ، " متألق " فى البيت الأول " البرق " ، " يغتمض " ، " استطار " فى البيت الثانى والثالث، فيه البرق وهو يذكر مبيته للمراقبة له فى السحب المكفهرة ٠

وهذه الأبيات تدعم ما سبق عند امرئ القيس وسحيم، من الاسبشار بذكر النور مع شىء فى الترقب والتفاؤل والتضرع ٠

وعند سحيم أيضا تتكرر الصور باستخدام نفسها ألفاظ مشابهة بشكل عجيب " يغتمض " ، " ويضيء " ، " ويجلو " ، ويضىء "([٦٦٥]) ٠

وأيضا " النابغة الذبياني " " يضيء " و " يتلألأ " سناه يضيء " " لامع " ([٦٦٦])،([٦٦٧])

وأيضا امرؤ القيس يشعل البرق كما يشعل الباجسان الوقود ([٦٦٨]) ، وهو كمصباح الشعيلة فى الذبال، له بريق يهب ويضعف ([٦٦٩]) وطفيل الغنوى، يشير إلى وميض البرق معبرا عن شدة هذا الوميض بصورة تمثلها فى غابة متشابكة الأغصان ، وأي أغصان إنها أغصان " الأثل " ، والمركم " أى المتركمة ، وهذه الصورة لأغصان الاثل فى الغابات، تكون معتمة ويصعب إضاءتها الا بوميض شديد ناتج عن البرق عند طفيل الغنوى فيقول:

---

(١) ديوان سحيم ص ٤٦

(٢) ديوان النابغة الذبياني ص ٢٤٦

(٣) نفسه ص ١٨٧

(٤) ديوان امرؤ القيس الكندي ص ٢٥٢

(٥) لبيد بن ربيعة العامري دراسة يحيى الجبورى،مكتبة الأندلس، بغداد بيروت د٠ت ص٢٦٤

أصاحِ ترى برقاً أُرِيكَ ومِيضَهُ يُضِيءُ سناهُ سُوقَ أثلٍ مُرَكَّمِ([٦٧٠])

يعقب الشاعر بكلمة " مركم " ليصف سوق الأثل وهى متراكمة ، وسوق الأثل تعرف بغلظتها وخشونتها ، وهو بذلك يريد فى الضوء " البرق " ، " وميض " ، " يضئ " ،" سناه " ، حيث يعطينا الشاعر صورة قوية للبرق ٠

ولا يكتفى عبيد بن الأبرص بأن ضوء البرق نفذ فى الغابة وأضاءها بل اشتبك فى الغاب فاصبح له حريق ، فيقول فى حديث عن البرق :

وسَقَى الرَّبَابَ مُجَلْجَلِ الأَ كنافِ لَمَّاحٌ بروقُه

وأطنب فى حديثه عن البرق حتى قال:

ودنا يضيءُ حُبابُه غابا يُضَرِّمُه حَرِيقُه ([٦٧١])

وتتطور صورة النار فى الحديث عن البرق من مجرد الضوء المنتشر من خلال الألفاظ إلى الضوء الشديد، لدرجة أنه يضيء الغابات المتشابكة ثم يتحول إلى حريق يضرم الغابة ، حتى يصل عند امرئ القيس إلى النار المقدسة التى تحول التفاؤل إلى الوجهة الدينية ، فليس الضوء ضوءاً عادياً – إنما هو ضوء مصباح الراهب ، فيقول :

أحارِ تَرى بريقا أُرِيكَ وميضَهُ كلمعِ اليدين فى حبيٍّ مكللِ

يضيءُ سَناهُ أوْ مصابيح راهبٍ أهان السليط فى الذبال المفتل ([٦٧٢])

---

(٦) ديوان طفيل الغنوى تحقيق محمد عبدالقادر احمد دار الكتاب الجديد بيروت ١٩٦٨

(١) ديوان عبيد بن الأبرص دار صادر بيروت د٠ت ص٩٧

(٢) أشعار الشعراء الستة الجاهليين للأعلم الشنتمرى حـ١ ص ٣٦

وراجع شرح المعلقات السبع للزوزنى ص ٣٢ ، ٣٣ بلفظ " أصاح "

وقد أشار الدكتور مصطفى ناصف، إلى مكانة الراهب الدينية " ([٦٧٣]) فمصباح الراهب يحمل من معانى الطمأنينة والأمان ، مما حمل امرأ القيس على تشبيه البرق به من قبيل الأمل فى هذا البرق ، فمصباح الراهب يُرى للمسافر ليلاً بين مفاوز الصحراء أو للتائه الذى تهدده أحداث الصحراء الجِسام ، فعند ما يراه يسكن قلبه وتستريح سريرته ويأوى إليه وهكذا البرق ٠

علاوة على هذه النار التى يراها فى ضوء البرق ، فهى مقدسة كقداسة نار مصباح الراهب وعليها يعقد أمل الخلاص والنجاة ٠

وبعد هذا العرض لنماذج الشعر التى تصف ضوء البرق، كأحد صور النار فى شدته وتعدُّد صوره وإحراقه للغابة، والنظر إليه كأنه نارٌ حقيقية كما يشعل الباجسان : الوقود ، أو كمصباح الراهب ، لم يكتف

الشعراء القدامى بهذا الوصف بل أخذوا يصفون الأرق والسهاد، وهم يبيتون ويتشوفون البرق ، الذى به تعمَّ النُعمى ، ويتسع العيش ٠

وفى هذه الشكوى تتداخل صورة النار أيضا لدى الشاعر ، وهو يتخيل البرق الذى أرَّقه وكأنه يتمثل صورته التى يرجوها فى شكل دعوات يناجيه بها، عله يستجيب بالظهور ، فهو كمصباح اليهودى الذى يستطيىء به اليهود، أو كضوء الصبح عند اوس بن حجر :

إنّي أَرِقْتُ ولمْ تَأْرقْ معى صاحي ... لمستكفٍّ بُعَيْدَ النومِ لـــوَّاحِ

قد نِمْتُ عَنْهُ وباتَ البرقُ يُسهرنى ... كما استضاءَ يهودىٌ بمصبــاحِ

يا من لبرق أبيت الليل أرقبـــه ... فى عارض كمضئ الصبح لَّاح

---

(٣) راجع قراءة ثانية لشعرنا القديم د٠مصطفى ناصف ص ١٢٦ ، ١٢٧ ٠

دانٍ مُسِفٍ فُوَيْقَ الأرضِ هَدْبُــه يكادُ يدفعُه مَنْ قَامَ بالـــرَّاحِ ([٦٧٤])

والربط هنا واضح بين البرق ومنارة الراهب اليهودى ، وبين البرق وضوء الصبح ولكن هذا الضوء " ضوء البرق " " لَّاح " اى لا يقيم ([٦٧٥]) وهنا مفارقة، فضوء الصبح مستمر وضوء البرق لماح متذبذب لا يقيم، فشبه بضوء الصبح فى شدته ، والملاحظ أن الشاعر يريد أن يجسد قلقه وتوتره فى انتظار البرق وترقبه فى الألفاظ الواردة فى القطعة، فنلاحظ:" إني أرقت" ، "ولم تأرق معي صاحبي" بعيد النوم"، "قد نمت عنه" ، وبات البرق يسهرنى" ، "يامن لبرق" ، " أبيت الليل أرقبه" .

وأبو ذؤيب الهذلى يصور تأرقه للبرق وتظهر صورة مصباح الراهب معانقة لصورة البرق فيقول :

أمنكَ ببرقٍ أبيتُ الليل أرقبُــهُ كأنَّه فى غِراض الشأم مِصْبَــاحِ ([٦٧٦])

وعبيد بن الأبرص، يأرق أيضا لضوئه وهو يتلألأ فى نشاص([٦٧٧]) وذلك ما يرد أيضا عند عروة بن الورد وتتكرر الصورة عند امرئ القيس الكندى فى أكثر من موضع يجسد فيها القلق والأرق لانتظار البرق([٦٧٨]) ويرى أبو الفرج المشهد نفسه للأرق والقلق ([٦٧٩])

---

(١) ديوان أوس بن حجر ص ١٥

(٢) فى الأدب الجاهلي د.طه حسين ص ٢٧٤ ، ٢٧٥

(٣) شرح أشعار الهذليين تحقيق عبدالستار فرج القاهرة ١٩٦٥ جـ١ص ١٦١

(٤) ديوان عبيد بن الأبرص ص ٨٤ " نشاص " سحاب مرتفع متراكم

(٥) ديوان عروة بن الورد ص ٣١

(٦) ديوان امرئ القيس الكندي ص٢١٥، الأغاني لأبى الفرج الأصفهاني

ويبرز عدى بن الرقاع القلق والحزن على تأخر رؤيا البرق فى مجموعة أبيات يجسد لنا مشاعره التى تتأجج شوقا عند تخيله لنتائج البرق من مزن تحملها الرياح وماء يلقى على الأرض تنتصب به الخضرة انصبابا ويعم به الخير فيقول :

فقمتُ أُخْبِرهُ بالغَيْثِ لَمْ يَــرَهُ والبرقُ إذ انا محزونٌ له أرقُ

مُزْنٌ تسيـــَّح ريح بمانيـــه مُكَلَّل بْعَماءِ الماءِ مُنْبَطِـــقْ

ألْقَى على ذاتِ أحفارٍ كُلاكِلُـــهُ وشَبَّ نِيرانِه وانْجابَ يَأْتَلِـــقْ

نارٌ يُعاوِدُ منها العودُ حِدَّتَـــه والنارُ تَسْفَعُ عبداناً فتحتـــرقُ(٦٨٠)

إنه أسرع لصاحبه يزف له خبر البرق الذى أسماه "غيثا" أى "نجاة" وهو نائم، فى حين كان فى أرق ينظره حزينا على تأخره ، وعلى قدر حزنه كان فرحه بهذا البشير الذى جاء بمزن محاطة بماء لونه داكن من غزارته ، وكأنه نطاق على إنسان. وهذه صورة للسحاب يتمناها العربى "سحابة سوداء" لكثرة مائها الذى يلقيه على صحاريه ، وتتدخل صورة النار فى اللوحة تتألق مبشرة بالخير والخضرة ، وهذه النار ليست كأى نار!! وإنما هى نار خيِّرة مبشرة يستعيد بها النبات قوته وخضرته واستقامته رغم أن النار تحرق عيدان هذا النبات ، اذن هذه نار مباركة وهى التى كان ينتظرها على أحر من الجمر فى أول الليل . فالبرق هنا يحمل النقيضين ، فأوله يناقض منتهاه ، فأوله "نار" او شكل من أشكالها ومنتهاه "ماء" ، ولعل هذا هو السبب فيما كان يفعله العربى فى عملية الاستمطار، فأشعل النار فى ذيل

---

(١) الوحشيات " الحماسة الصغرى " لابى تمام ص ٢٧٩ .

الحيوان ليحاكى هذه النار المباركة فيأتى الشبيه بالشبيه، وسوف نناقش ذلك فى طقس الاستمطار.

وبعد أن يشكو الشاعر من أرقه وسهاده للبرق مستجلبا إياه، يطلبه فى شكل دعاء يتمنى به أن يراه ، وكأنه يرفع أكف الضراعة وهو يقول "يأمن لبرق" أى من اين لى ببرق ارجى به الحى فتتجدد الحياة ويعم الخصب والنماء ، ولا يفوته تضمين صورة النار فى دعائه ، فيتمناه كالمصباح فى ضوئه او كالشعلة تتلألأ حافاته فيقول عبيد بن الابرص :

يا مَنْ لِبَرْقٍ أَبِيتٍ اللَّيْلِ أَرْقبُـهُ منْ عارضٍ كبياضِ الصبحِ لَّـاحِ

حتى يقول:

كانَّ ما بَيْن أَعْلاه وأسفلـــه رِبَطٌ منَّشرة أو ضوء مصبـاحِ (٦٨١)

ويقول فى تمنيه البرق بأن له نيرانا تحرق:

يامن لبرق أبيت الليل أرقبُـه فى مكفهر وفى سوداء مركومـة

ثم يقول :

فبرقُها حَرِقٌ وماؤها دَفِـقٌ وتحتها رتقٌ وفَوْقها دـيْمَـــةْ(٦٨٢)

وهنا يصرح عبيد بن الأبرص بمعول تمنى البرق بشكله المحرق أو المضىء ، والأصل أن نار البرق نار خيِّرة رغم حريقها ولفظ "حَرِق" ربما تمثل شر عند العرب ، وهذه اللفظة لم ترد مع نار البرق إلا عند عبيد بنَ الأبرص فى هذا البيت ، والبيت رُوى بديوانه(٦٨٣) ، وقد سبق

---

(١) ديوان عبيد بن الأبرص ص ٥٢، ٥٣ ، الربطة : الملاءة إذا كانت قطعة واحدة

(٢) مختارات شعراء العرب لابن الشجري ص ٣٩٣ ، ٣٩٤ " الريق" أول الماء" الديمة" المطر الدائم ، وراجع ديوان عبيد بن الأبرص ص ١٣٥

(٣) نفسه ص ٩٧

ذكر هذا البيت، ولعل عبيد بن الأبرص وهو الوحيد الذى يستخدم لفظ "الحرق" مع البرق ، له لهجة خاصة بقبيلته تعنى دلالة أخرى غير الدلالة المألوفة كدلالة الضوء مثلا ٠

والأعشى الكبير أيضا " يتمناه متعاليا" كأنه فى حافات " العارض" السحاب يبرق متلألأ فيقول :

يا هلْ يرى عارضاً قد بتُّ أرقبُه كأنَّما البرْقُ فى حافاتِه الشُّعَلْ([٦٨٤])

والواضح من إيراد الشعراء الجاهليين للنار فى لوحة البرق، أن له حيثيات ومقاصد كانت نابعة من احتياجاتهم وقضاياهم الوجودية والنفسية والدينية ، ويلمح ذلك من تمثلات الشاعر لصورة النار ، كمصباح مثلا أو شعلة تضىء له ظلمات الصحراء ليلاً ٠ فعند لبيد العامرى " كمصباح الشعيلة" فى الذبال ([٦٨٥])

وعند الأعشى الكبير " كأنما البرق فى حافاته الشُعَل" ([٦٨٦]) وعند أبى ذؤيب الهزلى " كما نوَّر المصباح لعجم أمرهم" ([٦٨٧])، وعند عمرو بن معد يكرب

" كأنه مصباح بان" ([٦٨٨])٠

والتفاؤل بالنور والبحث عنه والاطمئنان به ، لم يكن غريبا عن البيئة أو الفكر العربي، فالعرب ترى أن الجن يؤثر عليهم النور ، وقد ذكر الألوسى قصة عمرو بن يربوع مع السعلاة أو الغول التى تزوجها وظلت تعيش معه طالما يستر البرق عنها ، فلما غفل يوما عن ستره عن وجهها إذا بها تطير فى الجو تاركة ولديها وهى تقول :

---

(٤) ديوان الأعشى الكبير، تحقيق محمد محمد حسن، مكتبة الآداب مصر ١٩٥٠ ص ٥٠

(٥) راجع ديوان عبيد بن الأبرص ص ٨٨ ٠

(١) ديوان الأعشى الكبير ص ٥٠

(٢) شرح أشعار الهذليين ص ١٣٠

(٣)ديوان عمرو بن معد يكرب الزبيدى ص١٦٤تحقيق هاشم الطعان بغداد وزارة الإعلام ١٩٧٠

أمْسِكْ بنيكَ عمرو إنى آبقْ يرقٌ على أرضِ السَّعَـالَى آلقْ ([٦٨٩])

وهذه الترسبات لدى العرب نحو النور والضياء لم يهملها الإسلام ، وقد عد الدكتور عبدالحميد إبراهيم فكرة العرب عن النور، إرهاصات تبشر بقدوم نور يهدى العرب إلى الطريق السوى بين الأمم([٦٩٠])، بل استثمرها القرآن إلى أبعد الحدود فى حديث للعرب عن النور والظلام بشكل يعكس انطباع العرب نحو النور ورؤيتهم له حينما يقارن بالظلمة فى موضع واحد ، فقال تعالى عن المنافقين : " مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضـاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون" ([٦٩١]) وقد تناول المفسرون العرب هذه المقارنة بشكل واف ([٦٩٢]) ٠

ويستشف من خلال ما قاله المفسرون أن العرب كغيرهم، ترتاح للنور وتصف به الخير والإيمان، وقد كانت إجابة الرسول صلى الله عليه وسلم – حينما سُئل عن ربه فقال : " نور أنَّى أراه " وفى رواية أبى ذر قال : هل رأيت ربك ؟ قال " رأيت نورا " ([٦٩٣])٠

وهذه هى الرؤية التى استخدمها الاسلام للنور كرمز هداية ورشاد ودلالة على الاله الهادى الحكيم ، وقد سمى به الرسول – صلى الله عليه وسلم – وبه وصف فقال تعالى : "لقد

---

(٤) بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب للألوسى حـ٢ ص ٣٤٠ ، ٣٤١

(٥) راجع الوسطية العربية مذهب وتطبيق د٠عبدالحميد إبراهيم ص ٤٨٢، ٤٨٣

(٦) البقرة آية "١٧"

(٧) راجع تفسير الفخر الرازي مجلد ١ حـ ٢ص ٨٠
والقرطبي حـ١ ص ١٨٤،والجلالين ص ٥،وابن كثيرحـ١ص٥٣ والطبري مجلد ١حـ١ص ١١٠

(٨) النهاية فى غريب الحديث والأثر حـ٥ ص ١٢٤ ، وراجع صحيح مسلم حـ٣ ص ١٥ بشرح النورى دار القلم بيروت ١٩٨٧ ، سنن الترمزى تحقيق أحمد محمد شاكر دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٧ حـ٥ ص ٣٦٢ ٠

جاءكم من الله نور وكتاب مبين "([٦٩٤]) والقرآن سمى أيضا نوراً فى قوله تعالى : " وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس "([٦٩٥])

وقد استخدم القرآن الكريم كلمة النور بدلالات خيّرة مباركة فى كثير من مواضعه، حتى وردت هذه الألفاظ " النور،نورا ، نورهم ، نوركم ، نورنا ، نوره ، المنير" متكررة تسعاً وأربعين مرة، تُلمح من خلالها الدلالة الروحية للنور فى البيئة العربية والتي استوحاها القرآن الكريم ، وقد راعى الإسلام فعلا تركيبة العرب وطبيعة أفكارهم وثقافاتهم ، واستثمرها على خير وجه ، ولعل هذا هو المقصود بكلمة لسان فى قوله تعالى :" وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم" ([٦٩٦]) وقد ذهب المفسرون إلى الدلالة اللغوية لكلمة لسان بشكل محدود، فقال بعضهم هى اللغة ، وقد ناقش الفخر الرازى فى هذا الموضوع قضية خصوصية اللغة المرسل بها ، وهل هى توقفية على لغة العرب المعروف أم اصطلاح ([٦٩٧]) وكاد الفخر الرازي أن يقترب هنا من أن اللغة المقصودة لا تنتهى عند شكل اللغة المنطوقة ، ويبدو أنها تتعمق إلى عقائدهم وأساطيرهم وعاداتهم ، أي أن وحى السماء يراعى ويوائم كل هذه التركيبات المترسبة فى ذاكرة الشعب المرسل إليه، فاللغة يدخل فى نطاق دلالتها الثقافة أو التكوين الفكرى ٠

---

(١) سورة المائدة آية "١٥"

(٢) سورة الأنعام آية "١٢٢" وراجع الفخر الرازي مجـ ٧ حـ١٦ ص ١٨٠

(٣) سورة إبراهيم آية "٤" وراجع التفاسير الجلالين ص ٢١٠، ٢١١ ، وابن كثير حـ٢ ص٢٢

(٤) الفخر الرازي " مفاتح الغيب " مجـ١٠ حـ١٩ ص٨٠، ٨١

والبرق عند العربي القديم كان له دلالات البِشر والتفاؤل، وتوقع رى الوادى واخضرار الأرض، والجبل يظهر بعده مزدانا كأنه كبير أناس فى ثياب مزمل بالخضرة والأزهار، والنضرة ، والنعيم يعم كل شيء، حتى مكاكى الجواء يصبحن سلافى ويصدحن شدوا" يُسكرهن جمال الطبيعة مغنية فى جو السماء معبرة عن فرحة الكون بمناجاة البرق الذى بشر بالسيل([٦٩٨]) .

وهذه التداعيات النفسية التي انعكست عن صورة البرق لدى العربي القديم – سواء من صورة النور الذي سَبق الحديث عنها فى الفكر العربي ، أو عما يسببه البرق ويقدم له من خيرات يتوقعها العربي بعده فى بيئته – تمتد إلى إشارات روحية وتصورات دينية فالبرق عند امرئ القيس :

" يضيء سناه أو مصابيح راهب" ([٦٩٩])

وعند أبى ذؤيب الهذلي " أغرَّ كمصباح اليهود يلوح"([٧٠٠])

وهذه الدلالة الدينية التي يفصح عنها الشعراء تدل على الرؤية الدينية المصاحبة لصورة البرق ، فيه يستنزل المطر كمصباح الراهب المتعبد أو المتهجد الذي بدعوته المباركة تقدم البشرى ويعم الخير ، إذن كان للبرق أساس ديني فى حياة العرب الروحية ، والعربي كإنسان بدائي كان بسيطا إلى أبعد الحدود وكغيرهم من الشعوب ذات الثقافة الدنيا ، اعتقدوا أن الطبيعة، من حولهم محفوفة بقوى أعظم من قوى الإنسان([٧٠١]) والبرق جزء من هذه

---

(٥) راجع ديوان امرئ القيس ص ٢٢ ، وشرح المعلقات للزوزنى ص ٣٢ ، ٣٣ وراجع تعليق الدكتور إبراهيم عبدالرحمن محمد مجلة فصول المجلد الرابع، عدد يناير ١٩٨٤ "من أصول الشعر القديم"

(١) ،(٢) ديوان امرئ القيس ص٤٤ ، وشرح أشعار الهزليين حـ١ ص١٢٨

(٣) تاريخ الشعوب الإسلامية كارل بروكلمان ص ٢٤

الطبيعة حيث نُسب إليه فعل المطر، وينقل طه الهاشمي عن ماكس مولر :" أن قوة الطبيعة وشدة نفوذها نبهت فى العربي فكرة الدين فعبدها([٧٠٢]) وقد أشار فى موضع سابق الى أمثلة من عناصر الطبيعة اعتقد البدوي فى قوتها فاتخذ منها آلهة خير وشر([٧٠٣]) ٠

والطبيعة العربية هي التي تمخضت بالدين الصحراوي الذي يشير البعض إلى أنه سبق عبادة الثالوث السماوي([٧٠٤]) وأقرب ما فى الطبيعة العربية إلى البرق النار التي شاهدها البدائي فى تلماع البرق ، وكأنه ناتج عن قدح حجرين أو كالشعلة المتوقدة ٠

ولذا يتساءل النابغة متحيرا أمام مشهد البرق فى ظلمة الصحراء متشككاً فى أن يكون هذا البرق ضوء نار قائلا:

أقولُ والنجْــم قَد مَالت أواخرُهُ إلَىَ المغيَب تبين نظرةَ حــارِ

وألمحهُ مِنْ سَنا بَرقٍ رأى بصَري أم وجهُ نُعمٍ بدالي أم سنا نــارِ؟([٧٠٥])

وعدى بن الرقاع قد ذكر النار المباركة التي يراها ، فى البرق ، وهى نار يشتد بها العود بدلا من العيدان تحرق بالنار ولكن هذه النار ليست كأي نار([٧٠٦])٠

---

(٤) تاريخ الأديان وفلسفتها طه الهاشمي ص ٧٢ نقلا عن ملكس مولر

(٥) نفسه ص ١٢ : ١٤

(٦) التاريخ العربي القديم، ديتيلف نيلسون ص ٥٣ ، ٢٥٣ ٠

(١) جمهرة أشعار العرب لأبى زيد القرشي ص ١٨٨
(٢) راجع الوحشيات " الحماسة الصغرى" لأبى تمام ص ٢٧٩

وهذه النار ليست ناراً متخيلة شبه بها البرق من قبيل اللمعان، ولكنها نار كنار الاستسقاء التى كانوا يوقدونها فى أذناب البقر حتى يمطروا إذا جفت السماء ، فيقول حسان بن ثابت :

أَرِقْت لتوماضِ البرُوقِ اللَّوامعِ وَنحن نشاوى بين سَلْعٍ وفـارِغ

أرقت له حتى علمتُ مكانَـه باكتِافِ سلع فالتِلاع الدوافـعِ (٧٠٧)

يربط حسان بن ثابت بين البرق والنار التي كان العرب يوقدونها فى طقس الاستمطار ، ليؤكد أن اهتمام العرب بالبرق لم يكن للاستمتاع بضوئه أو لمعانه فى الظلام فقط ، وإنما يمتد إلى التفاؤل وانتظار الغيث بالمطر والسيل، لذا كانوا يستمطرون بنار السلع والعشر فى أذناب البقر .

ولطقس الاستمطار علاقة بالبرق ، ونار الاستمطار التي وردت فى كتب الخير والتاريخ لا تهمل، وما تنطوي عليه من أبعاد أسطورية تفسرها الممارسات البدائية فى البيئة العربية .(٧٠٨)

وهذه الظاهرة قد وردت أيضا فى شعر الجاهليين معبرة عن كل ما كان العرب يمارسونه أو يتصورنه فى نار الاستمطار فأمية بن أبى الصلت يقول :

سَنة أَزمةٌ تخيَّل بِالنَّـا سِ ترَى لِلعضاهِ فيهاَ صَرِيرَا

لاعَلَى كَوكَب نَـوءٍ ولا ريحِ جنُوبٍ ولا ترى طحرورا

---

(٣) ديوان حسان بن ثابت دار صادر بيروت د.ت ص١٤٧

(٤) راجع خزانة الأدب للبغدادي حـ٢ ص ١٥٠ وقد تحدد مواضع هذه الأخبار فى الكتب الآتية نهاية الأرب ، الحيوان ،صبح الأعشى ، وبلوغ الأرب ،المفصل فى تاريخ العرب ..ألخ .

وَيسوقون باقِرا السهل للطـــو ر مهازيل خشية أَنْ تَبُـورا

عاقِدين النِّيران فى شـكُس الأذ ناب عهداً كيما تَهـجَ البُحورا

فاشتَتوتْ كُلها فهاجَ عليهـــم ثمَّ هِاجَتْ الى صَبير صَبيـرَا

فرآها الإله تُرشِمُ بالقَطْـــ ـرِ وامسى جَنابُهم مَمْطُـوُرا

سَلَعٌ ما ومِثله عُشَرٌ مـــا عائل ما وعالت البيْقَـــودا (٧٠٩)

وهذه الأبيات تشير إلى قصة الإنسان البدائي العربي مع طقس الاستمطار واضطرارها إليه عندما تحلق سنة جدب فيعانى الجدب والجفاف. وكيف يلجأ لهذه الممارسات السحرية باستخدام النار والبقر ونبات السلع والعشر معلقين فى أذناب البقر؟

كل عنصر من هذه العناصر يثير تساؤلاً ، لماذا النار؟ ولماذا البقر بالذات ؟

وهذه التساؤلات يتناولها البحث فى الصفحات التالية .

مما ورد عن طقس الاستمطار، إن بعض الشعراء المسلمين فى العصر الإسلامي قد عاب هذه الممارسات وعيَر المستخدمين لها بقوله:

(!) راجع ديوان أمية بن أبى الصلت ص ٤٥ نقلا عن الحيوان للجاحظ حـ٤ ص ١٥٠ ، وراجع أديان العرب فى الجاهلية د.محمد نعمان الجارم ص ٧٨ ، وراجع عيار الشعر لابن طباطبا تحقيق محمد زغلول سلام منشأة المعارف بالإسكندرية د.ت ص٧٧

لادرَّ در رِجَالٍ خابَ سَعَيهُـمُ يَستمطرُون لَدَى الأزمَاْتِ بالعُشْر

أَجَاعِلٌ أَنْتَ بيقوراً مُسَلَّعَـةً ذريَعةً لَكَ بِينَ اللّهِ والْمطـــرِ([٧١٠])

وقد أورد الدكتور جواد على، طقس الاستمطار عند العرب وتوجههم إلى الغرب دون باقى الجهات ، يقصدون بها العين، والعين قبلة العراق ، وعرض لقول العجاج :

سارٍ سَرىَ مِنْ قِبلِ الْعَينِ فَجَـرَّ غُرَّ السَّحاب والمرابيْعَ البكـــر([٧١١])

وقد ذهب د٠جواد على بالعين، إلى القبلة المعروفة بالعراق، والتساؤل هنا، ألا يحتمل أن تكون

" العين" هنا مقصود بها عين الشمس ، وقد وردت الشمس فى الأساطير القديمة تحت مسمى " العين" ونحن حتى الآن نقول عن قرص الشمس عين الشمس ، وقال ابن منظور:" شعاع الشمس أو هى الشمس نفسها([٧١٢]) ، وينقل عن الليث : إنها هى العين التي فى السماء([٧١٣]) أو يقصد بها "البئر" ومن أسمائه أيضا العين ، وهو مصدر للماء ومنه " ماء معين" وفيه دلالة الماء ، أو يقصد بها "السحابة" إذا أقبلت من قِبل العراق ، والمطر إذا دام خمسة أيام لم يقلع أو ستة او أكثر ؟ ([٧١٤])

---

(٢) راجع عيار الشعر لابن طباطبا ص ٧٧ وراجع الحيوان حـ٤ص٤٦٨ بتحقيق عبدالسلام هارون

(٣) المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام د٠جواد على حـ٦ ص ٨١٦ ٠

(١) لسان العرب لابن منظور مادة عين حـ٤ص٢٣٢٥، ٣١٩٨

(٢) نفسه حـ٤ص٣١٩٨

(٣)نفسه مادة "شمس" حـ٤ص٢٣٢٤ وانظر المزهر فى علوم اللغة للسيوطي المطبعة العصرية بيروت ط١ص١٩٨٦

وهذه التداعيات التى جرتها كلمة "عين" فى هذا البيت ، والتى حمَّلته أبعادا أسطورية موغلة فى القدم ، وهى علاقات غامضة ومتشابكة بين رموز كامنة وراء المسميات العربية، فما العلاقة الظاهرية بين الشمس ، والسحاب ، والبئر؟؟ فقد جمعتهم بشكل ضمنى مستور كلمة "عين" لتصبح جماعا بين هذا المثلث الأسطوري للآلهة القديمة " الشمس، والسحاب ، والبئر" وهذه العلاقة تذكرنا بأسطورة مصرية قديمة صيغت حول الإله الأعلى الذى كانت عينه اليمنى هى الشمس ، وعينه اليسرى القمر المسئول عن الفيضان ، والسحب ، والماء ، أى أنها أسطورة تربط بين العين والشمس والقمر والماء أيضا ، وأسطورة أخرى تقول : ان الإله الأعلى " رع" أرسل عينه "الشمس" للبحث عن ولديه "شو" ، " وتفنوت" فى المياه الازلية([٧١٥])٠

وهذا يعنى التطابق بين رؤية الأسطورة المصرية القديمة ، وبين علاقة أسطورية مختزنة فى جذور اللغة العربية ٠

والشاعر وهو يتناول ظاهرة الاستمطار يقوم بدور الساحر، أو صانع المطر فى حديثه عن هذه التصرفات لاستنزال المطر تماما، مثل ما ذكر عن بكاء الطلل فى قصائد الشعراء فى إحدى الدراسات بأنه يمثل صناعة للمطر([٧١٦]) لأن استدعاء المطر صناعة له ٠

---

(٤) الرمز والأسطورة فى مصر القديمة رندل كلارك ترجمة أحمد صليحة ص٢١٤، ٢١٥

(٥) رمز الماء فى الأدب الجاهلي د٠ثناء انس الوجود ص١٣٠

والمهم هنا تناول العناصر الواردة فى هذا الطقس بالمناقشة ، فالنار التى وردت فى كل الأخبار وفى جميع النصوص ليست من فراغ ، فمكانة النار معروفة لدى العرب ، والفرس أيضا كانوا يستسقون بالنار فى عيد " أفريسكان" أى عيد حب الماء ،وقد تناول البيرونى هذه الظاهرة بالشرح([٧١٧])٠

إن النار كعنصر مقدس عند العرب وشعوب المنطقة، كانت تمثل آلهة تجلب الخير وتدفع الشر ، وكان ظهور البرق منيرا فى صورتها له دور كبير فى ربطها بالمطر ، فالبرق كان بشير المطر ، لذا ارتبطت النار بالمطر حتى فى الفكر المعجمى الممثل للحس اللغوى العربى ، فسموا المطر "ودقاً"، والنار وديقة ومنها حر منتصف النهار سُمى وديقة ، وقيل شدة الحر ٠

" والوْدق المطر" كله شديده وهينه ([٧١٨]) ولا يهمل المعنى الرمزى لهذا الارتباط الدقيق وما يضيفه من أهمية للنار كعنصر مقدس عند شعوب الشرق ٠

لذا ذهب كثيرين إلى أن استخدام النار فى طقوس الاستمطارِ فى أذناب البقر، كان تفاؤلا بالبرق([٧١٩]) وأشار البعض إلى أن طقوس الاستمطار من أساليب السحر التشاكلى

---

(١) الآثار الباقية من القرون الخالية للبيرونى ط ليبزج١٩٢٣ص٢٢٨

(٢) لسان العرب مادة "ودق" حـ٦ص٤٨٠٠ ، والمعجم الوسيط حـ٢ ص٢٣، ومختار الصحاح ص٢٩٨

(٣) راجع المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام د٠جواد على حـ٦ص٨١٦ ، حـ٥ ص٣٤١ وراجع الحياة العربية من الشعر الجاهلي د٠أحمد الحوفى ص٤٢٥

([٧٢٠]) وارتكن إلى آراء جيمس فريزر فى الغصن الذهبي، حيث إن الشبيه ينتج الشبيه أو المعلول يشبه علته([٧٢١]) .

عرض جيمس فريزر لنماذج من شعوب غير عربية تستخدم طقوس نارية لإنزال المطر ، ففى قرى قريبة من دوربات " Dorpat " فى روسيا، كانوا يستمطرون بدق الطبل محاكاة "للرعد وتطاير الشرر ومحاكاة البرق، ورش الماء محاكاة " للمطر" وذكر فى موضع آخر سالمونيوس Salmoneus ملك إيلين الأسطوري يقلد قصف الرعد عن طريق جر الأباريق من البرونز الخفيف خلف عربته ويحمل

المشاعل المتوهجة التي ترمز إلى البرق([٧٢٢]) وقد أشار الدكتور على البطل إلى أن ألسنة النار تمثل البرق أو هي رمز للبرق الذي يلازم المطر عادة([٧٢٣]) ونتسأءل ألا يمكن تفسير استخدام النار فى طقس الاستمطار على أنه إشارة صريحة إلى آلهة النار؟ ، أو هي صورة أو بقايا من طقس حرق القرابين للآلهة كما ورد فى الموروث السامي على مذابح ومحارق المعابد القديمة؟ رغم تواتر هذه الآثار وتناثرها فى مختلف الأمم والأديان والمصادر التاريخية بشكل موثق ؟

---

(٤) المطر فى الشعر الجاهلي د٠أنور أبو سويلم ص٦١، هذا وقد أشار د٠أبو سويلم إلى خصوصية العرب فى استخدام السحر لنزول المطر دون غيرهم فى حين وقعت يد الباحث على أخبار متناثرة فى المصادر التاريخية على عكس ذلك " راجع ص٤٣ من كتابه ٠

(٥) راجع الغصن الذهبي جيمس فريزر حـ١ص١٠٤، ١٠٥

(١) نفسه حـ١ص٢٥١، ٢٨٩

(٢) الصورة فى الشعر العربي د٠على البطل ص١٣١، ١٩١

وتتطور النظرة المتجهة نحو النار من السحر التشاكلى إلى أنها تمنح المطر كآلهة الخير ، حيث يشير الدكتور أنور أبو سويلم إلى أن النار هي التي تمنح المطر وأن العرب ضحوا بالبقر عند تقديمها لهم تقربا لها([٧٢٤]) وهذا له سنده، حيث إن العربي القديم كبدائي، كان يرى نارا فى الأشجار الخضراء وفى بطون الأحجار والجبال ، فليس ببعيد أن تعد النار شيئا قدسيا([٧٢٥]) وقد ربط الدكتور جواد على بين تقديس العرب للنار والنيران الواردة عندهم ، "كنار الاستمطار، والتحالف ... الخ"([٧٢٦]) وأشار الجاحظ إلى ولع الناس كافة والأمم قاطبة بتعظيم النار وعبادتها وامتثالها فى النار العلوية وهى الشمس ، والسفلية وهى نيران الأرض التي اتخذ لها بيوت وسدنه([٧٢٧]) ويشير ابن الجوزى إلى ما ساعد على عبادة النار وتنزيهها لعابديها أنها الجوهر الذي لايُستغنى عنه العالم ، ومن هنا زُين لهم عبادة النار والشمس([٧٢٨]) .

والدلائل تشير إلى تأثر العرب بالفرس كأكثر الشعوب اتصالا بالعرب أى أن فكرة عبادة النار وتقديسها قد وردت من هذا المورد ، وهو أرض فارس، حيث كانوا يفضلون النار على الترَب ويحترمون إبليس لكونه مخلوقاً من النار يقول بشار:

الأَرضُ سافَلةٌ سَـوداءُ مُظْلِمَـةٌ والنَّارُ مَعْبودةٌ مذ كانت النَّـارُ([٧٢٩])

---

(٣) المطر فى الشعر الجاهلي د٠أنور أبو سويلم ص٩٧

(٤) الأساطير العربية قبل الإسلام د٠محمد عبدالمعين خان ص٨٩

(٥) المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام د٠جواد على حـ٦ ص ٦٩٦، ٦٩٨

(٦) الحيوان للجاحظ حـ٢ ص ٤٩٢ تحقيق هارون، مطبعة مصطفى الحلبي القاهرة ١٩٦١

(٧) تلبيس إبليس لابن الجوزى مكتبة المتنبي د٠ت ص٦٢ .

(١) راجع ديوان بشار بن برد ص

وقد ورد عن زرادشت وتعاليمه أن العالم أصلان هما "أهو ارمزدا" وهو النور أصل الخير ، و"اهرمن" وهو الظلمة أصل الشر ، ومذهب مانى أن العالم نشأ من هذين الأصلين " النور والظلمة" ([٧٣٠]) .

والوثنيون يعبدون النار من جملة ما عبدوا من مظاهر الطبيعة ، ولا تزال عبادة النار فى الهند إلى اليوم معروفة ([٧٣١])

والنار عند العبريين لها مكانة، حيث " يهوه" كان يشكل نفسه على شكل النار أو على شكل النور، فهي عنصر بدائي وإله الإضاءة ([٧٣٢]) وقد أشار ابن كثير إلى النار التى ظهرت لموسى عليه السلام فى الجبل متسائلاً : وقد أتاهم بخبر وأي خبر"؟ ووجد عندها هدى وأي هدى ، واقتبس منها نوراً وأي نور؟! ([٧٣٣]).

وقد ذكر د٠عبدالمحسن الخشَّاب الثالوث الفارسي الناري "اهورمزد " و"افرادا" و"هتر" وثالوث المصريين الزراعي فى تاريخ اليهود القديم([٧٣٤]) وقد عرض النويرى فى حديث عن أول من عبد النار وهو قابيل ابن آدم، ومن ملوك الفرس"جم" ثم عبدت فى أرض فارس ، وفى كرمان ، وسجستان ، وخرسان ٠وطبرستان ، والجبال وأزربيجان ، وإيران ، وبلاد الهند والسند والصين ، وبني لها فى جميع هذه البلاد بيوت للنار ، وقد انقطعت عبادة النار فى كل هذه الأماكن إلا فى الهند، فإنها تُعبد حتى الآن ([٧٣٥]) ونقل الدكتور محمد عبد المعين

---

(٢) فجر الإسلام د٠أحمد أمين ص ١٠١، ١٠٥

(٣) قاموس الكتاب المقدس ص٩٨٣مادة "نار"و"نور"

(٤) - Dictionary of symbol and Imugery p " 187"

(٥) قصص الأنبياء لابن كثير مطبعة المعرفة القاهرة ١٩٨٨ ص٣١١، ٣١٢

(٦) تاريخ اليهود القديم فى مصر د٠ عبد المحسن الخشاب مكتبة مدبولى مصر ١٩٨٩ ص١٧٧

(٧) نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى حـ١ ص١٠٥ ، ١٠٦

(٨) الأساطير العربية قبل الإسلام د٠ محمد عبدالمعين خان ص٨٨، ٨٩

خان ، عن تاريخ الطبري: ان من عبادة العرب للنار أنهم كانوا يحفرون لها أخدودا مربعاً في الأرض ويحشونها ويملؤونها وقودا ، ثم لا يدعون طعاماً ولا شراباً ولا عطراً جوهرا إلا طرحوه فيها تقرباً لها ([٧٣٦]).

وهذه الصورة المقدسة للنار جعلتها في شكل الآلهة المعبودة تقدم لها القرابين والتقدمات يضحى لها بالأضحيات عند مختلف شعوب الأرض ، حيث لم يكن أمام الإنسان القديم إلا أن يمارس بعض الشعائر المعينة كتقديم القرابين والصلوات والأدعية والترانيم ([٧٣٧]).

وهذه النار التي عدت في طقس الاستمطار رمزاً للبرق والتي تعد الإله المعبود لدى الوثنيين، قد قدمت لها في مختلف الشعوب قرابين وأضاح على امتداد العالم ، وفي شتى العصور ، فعند الهنود البرهمن يقدم قربان للنار ثلاث مرات بعد غسله يوميا([٧٣٨]) وقد ذكر البيروني طقوسهم مع النار ومقدار قرابينهم للنار ([٧٣٩]) .

أما عن الفينيقيين فقد ذكر ول ديورانت، لطقوسهم في تقديم أطفالهم قرابين للنار بين دقات الطبول والمزامير لتغطية أصوات أطفالهم ([٧٤٠]) وفي صلاة إخناتون عند المصريين في المزمور الحادي والعشرين : " وغضبة لا يهدأ إلا بالتضحيات التي تحرق على

---

(١) الغصن الذهبي جيمس فريزر حـ١ ص٢٢٤

(٢) تحقيق ماللهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرزولة للبيروني عالم الكتب بيروت ط٢ ١٩٨٣ ص٤١٢

(٣) نفسه ص٤١٤ ، ص٤١٨

(٤) راجع قصة الحضارة "الشرق الأدنى القديم" وول ديورانت ترجمة محمد بدران حـ٢ مجلد ٢ ص ٣١٥ ، ٣١٩ وراجع التاريخ العربي وبدايته ابن مدني دار المعارف مصر ١٩٦٤ ص٣٥٨

المذابح ويسر لرائحتها كثيراً" ، ويرتب بنوهون "الكهنة" القطع من الرأس والشحم فوق النار التى على المذبح" ([٧٤١]) ٠

واليهود قد تأثروا أيضا بهذه الممارسات والمعتقدات يقول ول ديورانت : " إن القبائل الشامية الضاربة فى جنوب سوريا كانت تمارس عادات شبيهة بهذه العادات – يقصد حرق الأطفال ٠٠٠ ، ولا يختلف عنها إلا فى أسمائها وتفاصيلها([٧٤٢]) وهذا الانتقال غير مستبعد بين الأمم والحضارات على مر التاريخ، ولمتابعة حركة تطور الأساطير شكلاً ومضموناً يرجع لمجموعة من الدراسات والبحوث رصدت بمنهجية علمية وحياد موضعي دينامية تطور الفكرة بين المعتقد القديم، والذي تلاه من ديانات وحضارات ([٧٤٣]) ٠

واذا تابعنا هذه الحركة بشكل متأن فسوف يُكشف لنا كثير من الغموض ، ويُزال الستار عن كثير من الظواهر الأدبية والاجتماعية ، ويسهل تفسيرها بشكل تاريخى نفسى ٠

ألا نستطيع بعد هذا العرض الذي أسهب فيه البحث تخطى الرؤيا النقدية التي أعادت شعر البرق إلى مجرد التعبير عن التفاؤل ، إلى مرحلة السحر التشاكلى على أساس أن النار تشبه البرق فأتى به ؟؟ ألا نستطيع أن نرجع إلى الدلالة الدينية للنار المقدسة التي عُبدت بشكل مباشر أو كانت عنصرا رئيسيا فى تقديم المحرقات والقرابين مشوبة ليرضى بها الرب؟

---

(٥) مغامرة العقل الأولى فراس السواح ص١١٠ ، ١١١

(٦) قصة الحضارة وول ديورانت ترجمة محمد بدران مجلد ٢ حـ٢ ص٣١٩ ، ٣٤٦
وراجع الأساطير بين المعتقدات القديمة والتوراة ص١٦٨، ٢٩٣ والفلكلور فى العهد القديم حـ١ص١٣

(٧) الكتب التي تابعت دراسة الأفكار والديانات القديمة والتي أفاد بها الباحث هي : " مغامرة العقل الأولى ، والأساطير بين المعتقدات القديمة والتوراة ، والفلكلور فى العهد القديم"

ألا يمكن أن يكون هذا الطقس قد امتد متطورا فى حرق الأبقار فى طقس الاستمطار، رغم أن هذه الممارسات لها جذورها على امتداد العالم، وفى مختلف الحضارات وفى شتى العصور التاريخية ؟

لعلنا نستطيع هنا ربط نار الاستمطار بالنار المقدسة التى ناجاها الشاعر وانتظرها متأرقا طوال ليلة مبشراً بها فى نور البرق اللامع، وهى النار الخيرة المباركة التى بالصلاه لها تحلب لهم ناقة السماء مطراً يعم به الخصب والخير والنماء، وينعكس اثره على كل شئ فى الطبيعة فالجبال تزدان كأنها ترتدى العباب اليمانية والطيور تصبح سلافا من جمال منظر الطبيعة المزهرة.

فمن الطبيعي إذن أن يتهافت العربي لرؤية هذه النار المتمثلة فى البرق ويحاكيها فى نار الاستمطار.

وهناك عنصر آخر له فاعلية لا تهمل فى هذه الممارسات وهو الثيران، ما دور الثيران فى هذا الطقس؟؟

ولم لم تكن مكانها الخيول أو الإبل أو الأغنام؟ رغم تواجد كل هذه الحيوانات فى البيئة العربية بوفرة ؟! الإجابة عن هذا التساؤل تحتاج الى الوقوف على الأساطير المفقودة، أو محاولة البحث عنها فى مجموعة الأساطير المتناثرة وبقاياها والتي تتمثل الثور بطلاً لإحدى قصص صراع آلهة الخصوبة التي ترتبط بالمطر والإنبات ضد أخطار القحط والجفاف" (٧٤٤).

---

(١) الصورة فى الشعر العربي د. على البطل ص١٩١

وقد فسر البعض هذه الظاهرة بأن البقر يمثل قوة تتحكم فى السحاب والسماء ونزول المطر ، وهذه الاعتقادات من مخلفات عبادة الثور ، وما يرمز له من خصب ونماء (٧٤٥).

وبعضهم قصرها على أنها طقوس واحتفالات قديمة تتصل بهذا الإله الثور (٧٤٦)

وهذه الرؤى لها أبعادها وجذورها فى التراث الإنساني الموغل وينقل النويرى عن الشهرستانى أن الهنود عبدوا القمر واتخذوا له صنما على صورة عجل وبيد الصنم جوهرة (٧٤٧) ولا يخفى قدسية عجل أبيس عند المصريين، والنقوش والتماثيل التي تشير إلى مكانته عندهم (٧٤٨) وقد ورد أن موسى – عليه السلام – جعل لقومه حجرا مثل رأس الثور يحمل على ثور ويستسقى به موسى لقومه بالضرب بالعصى عليه ، وقد تناول المفسرون المسلمون الآية فى قوله تعالى : " فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل اناس مشربهم وكلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين " (٧٤٩) ويظهر فى تفسيرهم تأثير الفكر العبرى فى رؤيا الثور(٧٥٠) وهذا العنصر المتمثل فى الثور كأحد عناصر طقس الاستمطار لم يكن منفصلا عن النار المقدسة بحال من الأحوال ، فهو يأخذ شكل النار عند كثير من الشعراء الجاهليين ، ويرمز أحيانا

---

(٢) الشعر الجاهلي تفسيراً " أسطوريا" د٠مصطفى الشورى ص٩٧ ٠

(١) المطر فى الشعر الجاهلي ص٩٨ نقلا عن مواقف فى الأدب والنقد ص١٧للمطلبى

(٢) نهاية الأرب للنويرى حـ١ ص٥٧

(٣) راجع تاريخ اليهود فى مصر د٠عبدالمحسن الخشاب ص٢٠

(٤) سورة البقرة آية "٦٠"

(٥) راجع التفاسير : الفخر الرازي حـ٢ص١٠٢، وابن كثير حـ١ص١٠٠ ، والبيضاوىص١٢ ، والقرطبي حـ١ ص٣٥٨، والطبري مجلد١ حـ١ص٢٤٣، ٢٤٤، الجلالين ص١٠، والكشاف حـ١ ص٢٨٤ للزمخشرى ٠

للبرق ، وأشهر ما للثور رمزيته لإله " القمر" وكل هذه صور للنار المقدسة سواء أكان البرق أم القمر فهما صور للنار أو شكول لها ٠

والثور يأخذ شكل النار صراحة عند أغلب الشعراء الجاهليين، فهو مثل"جذوة المقبس" عند امرئ القيس الكندى ([٧٥١]) ، وهو "كالحداد ينفخ فى الفحم" عند النابغة الذبيانى " ([٧٥٢]) وكأنما أسف صلى نارا عند الضابئ بن الحارث ([٧٥٣]) ، ويسير كما رفع المنير بكفة لهيبا "عند أوس بن حجر ([٧٥٤]) ٠

الكلاب"تلمع فى عراقيبه كالفتيلة الموقدة"([٧٥٥])

وكأنه الصيقل الذى يشحذ السيوف" ([٧٥٦]) أو كأنه " نصل السيف الذى يشتعل متنه ضوءا"([٧٥٧]) أو هو شهاب ثاقب متوقد"([٧٥٨])٠

هذه بعض الصور الشعرية للثور- وان كان الشعراء لا يقصدون هذه العلاقة عن وعى منهم ، وإنما كانت تدلف من لا شعورهم من صور الشعر- تساعدنا على إدراك هذه العلاقة وتزيل الغموض عن هذه الرموز وتكشف بصيصاً من النور عن استخدام النيران مع الثيران فى طقس الاستمطار ٠

---

(٦) ديوان امرئ القيس الكندي ص١٠٢

(٧) ديوان النابغة ص٦٦

(٨) الاصمعيات ص١٨٣

(٩) ديوان اوس بن حجر ص ٣، ٤ ٠

(١) ديوان لبيد بن ربيعة ص٢٤٠

(٢) ديوان الأعشى الكبير ص٣١٥

(٣) ديوان لبيد بن ربيعة ص٢٣٥

(٤) شرح أشعار الهذليين حـ١ص٦٠

وللثور أيضا علاقة بالبرق ، الذى هو بشير المطر والسيل وصاحب الخير والخصب، ويشير د٠ عبد الجبار المطلبى لهذه العلاقة، بأنه فى الاعتقاد الكنعانى أن الثور "إله" الخصب الذي يستمطر السحب ، ويرسل الغيث وله ارتباط بالآلهة وابنه بالبرق(٧٥٩) ٠

ويورد د٠على البطل تشبيه المتلمس للثور بالبرق صراحة :

وبالوَجهِ ديبـاجُ وُفَوْقَ سَـــراتِهِ دَيامُوزَةٌ والرَّيْقُ أسْحَمُ أملَسُ

َجثولث بِذِى الأَرطَى كَأنَّ سَراتَـه كبرقٍ نزيعٍ والسَّحَابةُ ترحُسُ(٧٦٠)

وهذه العلاقة التي ربط بها الملتمس بين الثور والبرق، وإن كانت بعيدة تشير إلى علة استخدام النيران فى طقس الاستمطار، حيث إن الثور له علاقة بالبرق أيضا، ولا يقل وجوده فى الطقس عن وجود النار أهمية، وللثور أيضا علاقة بالقمر كأحد الكواكب التي تمثل النار فى الفكر القديم ، فهو يضئ الصحراء ليلاً وقد ربط العقل البدائي بين النار والقمر ، وغيره من الكواكب ، ومن مظاهر عبادة العرب وتعظيمهم للقمر أنهم اتخذوا له صنما على شكل عجل ويبد هذا الصنم جوهرة(٧٦١) وقد اتخذه العرب الجنوبيون رمزٌ "لإلاههم القمر فَعُدَّ الثور من الحيوانات المقدسة التي ترمز إلى الآلهة، وقد دعى القمر فى بعض النصوص "ثورا" (٧٦٢) ويشير نفس المرجع إلى أن الثور عند العرب القدماء إله يسمى بعلاً " ورمزٌ به للهلال والقمر ، فهو "المقه" وهو "هبل" والثور معناه السيد والرب وكان رمز إله الخصب والمطر(٧٦٣).

---

(٥) نقلا عن المطر فى الشعر الجاهلي ص١٥٤ ومواقف فى الأدب والنقد د٠عبد الجبار المطلبى ص٨٨

(٦) الصورة فى الشعر العربي د٠على البطل ص ٩٨

(٧) بلوغ الأرب للألوسى حـ١ص٢١٦ ٠

(١) التاريخ العربي القديم ديتلف نيلسون ص٢٠٧

(٢) المرجع السابق ص١٥٤

ويذكر د٠جواد على، أن الثور رُمز به فى المراحل التالية للقمر، إذ وجدت فى معابد القمر جنوبى الجزيرة " صور ثور قدمها عابدوه قرابين للآلهة أو نذورًا كانت عليهم له وقد عرف القمر باسم " ثور" (٧٦٤) وقدً اكدت صور الشعر العربى هذه العلاقة بين الثور والقمر ، فالشعراء يرسمون صورة الثور، وهو يستقبل المطر بقرنيه اللذين يشبهان الهلال يقول النابغة الذبيانى :

مولى الريحَ رَيْقيهِ وجَبهتَــه كالهبرتى تَنحَّى ينفُخُ الفحمَـا(٧٦٥)

ويقول زهير بن أبى سلمى :

مولى الريح رِيقيه وجبهتَــه حَتَّى دَنا مِرزِمُ الجَوزَاءِ أو خفقا(٧٦٦)

وعند الأعشى الكبير:

مُكِباً على رَيقيه يَحفُرُ عِرقهَـا على ظهرِ عُريانِ الطريقة أهُيَمَا(٧٦٧)

وعند بشر بن ابى خازم:

وبات مُكبًا يتِقيهَا برِيقِــهِ وَأرطَاة حِقْفٍ خانها النبتُ يَحفُرُ(٧٦٨)

---

(٣) المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام د٠ جواد على حـ١ص١٧٤، ١٧٥
وللرجوع فى مواضع متفرقة بالكتاب المذكور
(٤) ديوان النابغة ص ٦٥
(٥) ديوان زهير ص٤٢
(٦) ديوان الأعشى الكبير ص ٣٣١
(٧) ديوان بشر بن أبى خازم ص٨٢ تحقيق عزة حسن، دمشق وزارة الثقافة ١٩٦٠

وعند لبيد بن ربيعة :

إذا وَكَفَ العُصُونُ عَلى قراهُ أدارَ الرَّيْقَ حَالاً بَعْدَ حَالِ ([٧٦٩])

وهذه الصور كلها والتي ترمز للهلال بقرني الثور، تؤكد العلاقة بين الثور والإله القمر ، كصورة من صور النار وكإله من آلهة المطر ، ويتكرر أيضا ذكر الثور مع اللفظ (بات) ، وبات تحمل معنى السكون بالليل ، والليل زمان سيطرة الإله القمر على الطبيعة ومملكتي السماء والأرض ([٧٧٠])

وقد حاول البعض استبعاد العلاقة الدينية بين البقر والنار وتحدث عن الطقس من منظور إسلامى ، فى حين أن هذا الطقس هو من الممارسات الوثنية التي لا تمت للإسلام بصلة ، بل الناقد بهذا الشكل يكون فى واد والظاهرة فى واد آخر، يقول أحد النقاد : " لا علاقة بين إحراق البقر على هذه الصورة ، وبين دعائهم الله تعالى ، فهل لهذا العمل علاقة بعبادة الله؟ وهذا فيما يبدو تجنٍ على الظاهرة إذا قيمت بغير معاييرها المناسبة ، والقرآن نفسه تحدث صراحة عن الآلهة الوثنية للعرب قبل الإسلام بشكل موضوعي صريح ، ولم يتجاهل الظواهر السابقة عليه ، ولكن تناولها بشكل منهجي ، فهو يسألهم مستنكرا يريد التوبيخ لهم فى قوله تعالى : " أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين" ([٧٧١]) وتناوله

---

(١) ديوان لبيد ص٧٧

(٢) راجع للمزيد ديوان امرئ القيس ص١٠٢ الأصمعيات ص١٨٢ وراجع ديوان طرفة بن العبدص٧٥، النابغة الذبياني ص٦٥، ٣١٥ ، وعبيد بن الأبرص ص ٨٢ ، والأعشى الكبير ص ٣١٥، ٣١٧ ، وديوان لبيد بن ربيعة ص٧٦، ٣٣٩ ، وديوان بشر بن أبى خازم ص٥٥ ، ٨٢، ٣٠٤ "

(٣) سورة الصافات "١٢٥"

المفسرين " البعل" بالإخبار عنه، حيث هو صنم لأهل "بك" وهو البلد الذي يسمى "بعلبك" وقيل "البعل" الرب بلغة أهل اليمن وتناولوه بالوصف مع التفاوت بينهم ذلك ([٧٧٢]) .

وهذا يدل على أن "بعل" كان إله المطر لدى العرب وقد وردت كلمة بعل للدلالة على النبات الذي سقى منه ماء السماء ، ويشير ابن الأثير إلى العلاقة الدينية القديمة قائلا : " ما سقى بعلا " عليه العشر ([٧٧٣])

وهذا يحدد العلاقة أو يؤكدها بين البرق والمطر في الفكر العربي القديم ، وقيمة استخدام الثيران في الاستمطار بالحرق .

فالبعل في اليمنية الجنوبية بمعنى الرب، والثور يعنى " السيد" فى العربية([٧٧٤]) هذا هو الفكر المعجمي ورواسب الديانات القديمة فيه بدون قصد من واضعيه، وتسميات المطر تعطى نفس الدلالة فسموه "غيثاً" أو "حيا" ولا شك في أن هذه التسمية الأخيرة من الحياة ؛ لأن الخصب سببها([٧٧٥])

فقد قدسوه كما قدسه أسلافهم الساميون لإيمانهم بأن الماء عصب حياتهم([٧٧٦])

وهذا ما يبدو لديهم من خلال هذا العرض الميثولوجى لعناصر ظاهرة الاستمطار وتداخلها بشدة مع صورة النار والثور، "فالنار" هي النار المقدسة الممثلة لنار البرق اللامعة ، والثيران" رامزة لهذه النار أو البرق من خلال علاقتها بدلالة المنير"القمر" إله المطر وكل هذه الصور

---

(٤) راجع تفاسير : الجلالين ص ٣٧٨ والكاشف حـ٢ص٣٥٢ والقرطبي حـ٨ص٥٥٦ والبيضاوي ص٥٩٦، والفخر الرازى حـ٢٥ص١٦١، والطبري حـ٢٣ ص٥٨

(٥) النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير ط١ص١٤١

(١) اللسان حـ١ ص٥٢١، ٥٢٢ ، والمصباح المنير ص٥٥، ٥٦ "بعل"وراجع النهاية فى غريب الحديث والأثر حـ١ ص١٤١

(٢) لسان العرب حـ٢ص١٠٨٧

(٣) راجع مقدمة القصيدة العربية فى الشعر الجاهلي د٠حسين عطوان بتصريف دار المعارف مصر ١٩٧٠ص٤٦ .

المتشابكة بشكل جدلي معقد، يحتاج إلى دراسات متأنية حتى تنكشف العلاقات الحقيقة بين عناصر الطقوس وممارسات الجاهليين وانعكاساتها على أدبهم ولاسيما لو استندت هذه الدراسات على مكتشفات أثرية ونقوش كدليل تاريخي علمي حتى تخرج من مرحلة التخمين والظن الذي لا يعرف الكلمة النهائية.

إذن ظاهرة الاستمطار تمت بشكل ما إلى عبادة النار كإله خيّر مانح للمطر، بداية بالبرق واستعانة بالنار الموقدة فى عراقيب الثيران الممثلة للإله "القمر" رب المطر ، وأحد أبناء النار، فالنار فى هذا الطقس وهى مطعمة مدرة للخير والخصب والنماء ، وتوارد ذكرها في الشعر الجاهلي إنما ينعكس عن تراث ديني موغل فى القدم طمسته العصور، وهذه رواسبه وإن كانت بصور باهتة إلا أنها إشارات إلى هذا التراث تنتظر توثيقاً تاريخيا يرجع كل ظاهرة لأصلها الديني القديم .